

شعر غزوات

النبي صلى الله عليه وسلم

((دراسة تحليلية))

أ.د. محمد بن هادي المباركي

الجامعة الإسلامية المدينة المنورة

المملكة العربية السعودية

الملخص:

قامت هذه الدراسة على تتبع شعراء غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتصدي لهم في كلّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدعوة الإسلامية.

وقد اشتملت هذه الدراسة على مبحثين أساسيين، أحدهما بعنوان: ((الشعر في مواكبة الغزوات))، وفيه عرض البحث لغزوات النبي صلى الله عليه وسلم، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشعر من ردود على شعراء المشركين، حيث كانت غزوة (بدر) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشعراء، ثم تلتها غزوة (أحد)، واتسم فيها الشعر بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفخرون على المسلمين، ولذا فقد جاءت الردود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشعر، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة (الخندق) وقف الشعر يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنوية في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنهم باءوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة (مؤتة) وقف الشعر يستنهض الهمم، ويقوّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من النصر أو الشهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء (فتح مكة) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء، حيث مجد الشعراء ذلك الفتح وأبانوا عن عظمتهم، وأهميته للمسلمين.

Abstract :

This research is based on exhaustive compilation of the eternal poems said in the battles of the Prophet (May the blessings and peace of Allah be upon him) and those poets that composed them. It touched on the spirit of enthusiasm, determination, concern for the defense of Islam, fight against its

opponents and rejoining to all the poems they said to offend the Islamic Da'wah.

The research is composed of two main research sections:

First: Poems said to keep up with the Prophetic battles. Here the research addressed the Prophet's battles and the poems said in their regard in response to the poems of polytheistic poets, where the battle of Badr was the first battle to get the attention of poets. Then, it was followed by the battle of Uhud, which was characterized by profound amount of poems owing to the events that occurred making the polytheistic poets to exhibit superiority over the Muslims. That is why the rejoinders of Muslim poets came to silence those poems and expose their defects.

In the battle of the Trench, poetry stood to express the enthusiasm of Muslims and their moral spirit to confront the confederates that came to invade the Muslims but ultimately returned with ill consequence and loss.

During the battle of Mu'tah, the Islamic poetry stood by to boost morals, enhance determinations and refer to the victory or martyrdom in the path of Allah, which was the aim and objective of the Muslims.

Finally, was the Conquest of Makkah, which was indeed a great glad tidings for Muslims and a gateway to spread Islam in that area. The poets glorified that victory and expressed its greatness and significance to Muslims.

الشعر في مواكبة الغزوات

كان عصر صدر الإسلام حافلاً بالوقائع المتوالية ضدّ المشركين، إذ كانت المعارك تدور معركة في إثر معركة، وقد أوجد ذلك صوراً مفعمة بالبسالة والتضحية بين المجاهدين الذين كانوا يلاقون عتاة المشركين ويتصدّون لهم، ويوقعون بهم الهزائم، وذلك ما صوره الشعر في تلك الفترة، فقد واكب الأحداث، وأبرزها في صورة واضحة للعيان، تعبر عن عظم المهمة التي قام بها أولئك المجاهدون، وما قدموه خلالها من التضحية بالنفس والنفيس.

هو ما يدلّ على الدور العظيم الذي قام به الرسول الكريم ﷺ فقد استطاع أن يطوّر الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والحربية خلال - عقدين ونيف من الزمن، وأن يجهّز الجيوش والفرسان لنشر الدعوة الإسلامية في مختلف الأمصار وقد صور الشعر غزوات الرسول ﷺ ومعاركه، وعلى رأسهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة - رضوان الله عليهم أجمعين - الذين جاء شعرهم ناطقاً حياً ومعبراً صادقاً عن المعارك والغزوات، سواءً أكانت داخل الجزيرة العربية أم خارجها، فجاء الشعر مفعماً بتصوير

تلك الملاحم البطوليّة، التي سطرها المسلمون، وقدّموا خلالها أروع التّضحيات من أجل نصرة الدّعوة الإسلاميّة.

ومن يتأمّل في أثر الشّعري في تلك الحقبة الزمنيّة، وقدرته على حفز الهمم والعزائم يدرك ما كان ينبغي أن يصنعه الشّعري من تأثير فاعل في مواجهة الأعداء الذين ما فتئوا يسيئون للدّعوة الإسلاميّة ويهجون الرسول الكريم والمسلمين، وهو ما ظهر جليّاً في أشعارهم التي ردّت عادية الأعداء، وتصدّت لسهامهم، فكانت تقوم بمهمّة الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة، وذلك ما أبان عنه بوضوح الحديث النبويّ الشريف الذي روته عائشة رضي الله تعالى عنها- أنّ رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنّه أشدّ عليهم من رشق النبل، فأرسل إلى ابن رواحة فقال: اهجم فهاجمهم، فلم يُرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم إلى حسان بن ثابت، فلمّا دخل حسان قال: قد أن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه ثم قال: والذي بعثك بالحق لأفريتنهم فري الأديم، فقال رسول الله ﷺ: لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسباً حتّى يلخص لك نسي، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يا رسول الله قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما نُسلُ الشّعرة من العجين». قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هجاهم حسان فشفى واشتفى» (مسلم، 1375هـ/4/1935).

وقد عدّ النبي ﷺ الشّعري المدافع عن الإسلام نوعاً من أنواع الجهاد، وذلك في قوله ﷺ: «المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكانّ ما ترمونهم به نضح النّبل» (ابن حنبل، 1374هـ/3/465).

فكان شعراء المسلمين يشاركون بقصائدهم في كل ما يعرض من أحداث، ويصفون المعارك الإسلاميّة.

وسوف يظهر بوضوح أثر شعر الغزوات في وصف المعارك التي دارت بين المسلمين والمشركين، وإبراز القيم الإسلاميّة السّامية التي أفصح عنها المسلمون، وهم يسرون في الغزوات، ويخوضون المعارك، وتتحقّق لهم الفتوح التي طالما انتظروها، لينشروا دعوتهم الإسلاميّة في كلّ الأفاق، ويعلنوا عن دينهم الحقّ الذي ارتضاه المولى - عزّ وجلّ - ديناً لكلّ البشريّة. وفي مقدّمة تلك الغزوات التي خاضها المسلمون في عهد النّبي ﷺ.

(1) غزوة بدر:

لقد سجّل الشّعر غزوات النَّبِيِّ ﷺ والوقائع التي دارت بين المسلمين والمشركين، وقد كانت البداية الأولى غزوة بدر التي التقى فيها المسلمون بجحافل قريش، وأذاقوهم مرارة الهزيمة، وقتلوا كبار رجالهم، وتركوهم مجندين في أرض المعركة، حيث قُتل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وغيرهم من كبار المشركين الذين تحالفوا على حرب المسلمين، وهو الجانب الذي صوّره حسان بن ثابت ؓ في قصيدته الرائية التي يقول فيها:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتَى مَكَّةَ الَّذِي قَتَلْنَا مِنَ الْكُفَّارِ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ

قَتَلْنَا سَرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَّا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ

قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ بَعْدَهُ وَشَيْبَةَ أَيْضًا عِنْدَ ثَائِرَةِ الصَّبْرِ⁽¹⁾

وَكَمْ قَدْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزَّءٍ لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِهَ الذِّكْرِ

تَرَكْنَاهُمْ لِلْخَامِعَاتِ⁽²⁾ تَنْوِيهِمْ وَيَصْلُونَ نَارًا ثُمَّ نَائِبَةِ الْقَعْرِ

بِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَالِدِّينِ قَائِمٍ وَمَا طَلَبُوا فِينَا بِطَائِلَةِ الْوَثْرِ

لَعَمْرِي لَقَدْ قَلَّتْ كَتَائِبُ غَالِبٍ وَمَا ظَفِرْتُ يَوْمَ التَّقَيْنَا عَلَى بَدْرِ

لَقَدْ شَقِيتُ كَعْبٌ جَمِيعًا وَعَامِرٌ بِأَسْيَافِنَا يَوْمَ التَّقَيْنَا عَلَى بَدْرِ

قَتَلْنَاهُمْ قَتْلَ الْكِلَابِ فَلَمْ نَدَعْ لَهُمْ فِي جَمِيعِ النَّاسِ يَا صَاحٍ مِنْ فَخْرٍ

(ديوان حسان، 1983م، 266)

ولقد كان رسوخ المعتقد في نفوس الشعراء يدعوهم إلى التوكل على الله، والثقة به، ورجاء النصر الذي لن يفارقهم ما داموا متوكلين على خالقهم - عز وجل - غير آبهين بالأعداء ولا بكثرة عددهم وعتادهم، وهو ما صوّره حسان ؓ يوم بدر، عندما لقوا الكفار بعزيمة قويّة، وإرادة عالية، فكان النصر حليفهم، رغم كثرة عدد المشركين، حيث يقول في هذا المعنى:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللَّهِ قَوْمًا وَإِنْ كَثُرُوا وَأُجْمِعَتِ الرُّحُوفُ

إِذَا مَا أَلْبُوا جَمْعًا عَلَيْنَا كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبُّ رُؤُوفُ

سِرَاعاً مَا تُضَعِّضُنَا الْحُثُوفُ

سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالْعَالِي

لِمَنْ عَادُوا إِذَا لَحِثَتْ كَشُوفُ

فَلَمْ تَرَ عُصْبَةً فِي النَّاسِ أَنْكِي

مَاتِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ

وَلَكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا

وَنَحْنُ عِصَابَةٌ وَهُمْ أُلُوفُ

لَقَيْنَاهُمْ بِهَا لَمَّا سَمَوْنَا

(ديوان حسان، 1983م، 391)

فهذه الأبيات تحمل في دلالتها المعنى العميق لآيات القرآن الكريم في نفس الشاعر، فقد استلهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنفال، وأبان عنه في البيت الأول: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (الأنفال: 44) (زلط، 1403هـ، 142).

حيث تحمل الأبيات الشعرية معاني التضحية والفداء، والرغبة في الجهاد في سبيل الله صقاً واحداً، ونبذ الهيبة من الأعداء مهما بلغوا من الكثرة في العدد والعتاد، وهذه العزيمة الصادقة أبرزتها كثير من القصائد الشعرية التي تناولت الغزوات، ووصفت ما دار فيها من قوة المواجهة بين الجيشين.

وفي وصف غزوة بدر يشير حسان رحمه الله إلى عظم قدرة الله تعالى، وكيف أنه نصر جنده في تلك الموقعة، وخذل المشركين المعاندين، الذين تكبروا وتجبروا على دعوة الحق، فأملهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وفي ذلك يقول:

بِصِدْقٍ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكَذُوبِ

وَحَبْرٍ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ

لَنَا فِي الْمَشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ

بِمَا صَنَعَ الْمَلِكُ غَدَاةَ بَدْرٍ

بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنَحَ الْغُرُوبِ

غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمْ جِرَاءُ

كَأَسَدِ الْغَابِ مِنْمُرْدٍ وَشَيْبِ

فَلَا قَيْنَاهُمْ مِنَّا بِجَمْعٍ

عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي وَهْجِ الْحُرُوبِ

أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدَّارِزُوهُ

وَكُلُّ مَجْرَبٍ خَاطِي الْكُفُوبِ

بَأَيْدِيهِمْ صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ

فَغَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحاً

وَعُثْبَةً قَدْ تَرَكْنَا بِالْجَبُوبِ

وشيبة قد تركنا في رجالٍ

ذو يحسب إذا انتسبوا حسيبٍ

(ديوان حسان، 1983م، 134-135)

حيث أبانت هذه الأبيات عن شدة موقعة بدر، وما حدث فيها من قتل سادة قريش وفرسانهم، فقد تركوا مجندين في أرض المعركة والطير تحوم فوقهم في مشهد يدل على بسالة المجاهدين، وتمكُّنهم من أعدائهم. ولا غرابة في ذلك فقد كانت التضحية والفداء تتقدَّمان تلك المعركة، وذلك حين تسابق الصحابة - رضوان الله عليهم - لحمل السلاح ومقاتلة أعداء الإسلام، وذلك سعياً وراء رضوان الله تعالى، وطمعاً بجنته التي وعد بها الشهداء في سبيله. وحينما قال الرسول ﷺ يوم بدر: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة» (ابن هشام، 1375هـ، 627/1)، فقال عمير بن الحُمام السُّلَميؓ، وكان يأكل تمرات بيده: بخ بخ، فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم كذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل، وهو يقول:

رَكُضاً إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ

إِلَّا التَّقَى وَعَمَلِ الْمَعَادِ

وَالصَّبْرِ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ

وَكُلُّ زَادٍ غُرْضَةُ النِّفَادِ

غَيْرُ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرِّشَادِ

(الطبري، 1387هـ، 448/2)

(2) غزوة أحد:

تعدُّ غزوة أحد الموقعة الثانية التي دارت بين المسلمين وكفار قريش بالمدينة المنورة، وذلك حين عزم كفار قريش على أن يثأروا لهزيمتهم ببدر، وما أصابهم فيها من الخسائر في الأرواح والأموال وسقوط هيبتهم، حيث بدأوا يعدُّون العدة لأخذ الثأر من المسلمين، فجمعوا قبائلهم وعشائرتهم ومن حالفهم من مكة وجوارها وجاءوا قاصدين الليل من رسول الله ﷺ في عدد من الرجال يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل، بينما كان عدد المسلمين الذين خرجوا وثبتوا لهذه المعركة لا يزيد على الأربعمئة مجاهد، وقد انتهت المعركة لصالح المشركين، حيث استطاع الكفار قتل بعض قادة المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد

المطلب ﷺ ورجع الرسول ﷺ بمن معه من الرجال إلى المدينة، بينما عادت جحافل الكفار ومعهم جرحاهم وبقلوبهم فرحة الثأر لقتلهم في بدر التي حاقت بهم الهزيمة فيها. وقد كان للشعر دوره في غزوة أحد، حيث وصف الشعراء ما دار فيها من أحداث ومواقف، ودارت مساجلات بين شعراء المسلمين وشعراء الكفار، ورثى الشعراء من استشهدوا في تلك الغزوة، وفي مقدمتهم حمزة بن عبد المطلب ﷺ (زط، 1403هـ 161).

وأولى هذه القصائد التي نظمها الشعراء في تلك الغزوة قصيدة حسان بن ثابت ﷺ التي ردَّ فيها على هُبيرة بن أبي وهب المخزومي - شاعر المشركين - الذي خالجه السرور والتعالي بما حققه قومه في أحد، وهو ما ظهر في قصيدته التي يقول مطلعها:

سُقْنَا كِنَانَةً مِنْ أَطْرَافِ ذِي يَمَنِ عُرْضِ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُرْجِيهَا

(ابن هشام، 1375هـ 130/3)

فقد ردَّ عليه حسان بن ثابت ﷺ بقوله:

سُقْتُمْ كِنَانَةً جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ إِلَى الرَّسُولِ فَجُنْدُ اللَّهِ مُخْزِيهَا

أُورِدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً فَالْتَأَرْ مَوْعِدُهَا، وَالْقَتْلُ لَاقِيهَا

أَنْتُمْ أَحَابِيْشُ جُمِعْتُمْ بِلا نَسَبٍ أُنْمَةُ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا

هَلَا عَتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ لَقِيَتْ أَهْلَ الْقَلْبِ وَمَنْ أَرْدَيْنَهُ فِيهَا

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلا تَمَنِ وَجَزَ نَاصِيَةٍ كُنَّا مَوَالِيهَا

(ديوان حسان، 1983م، 205)

حيث يشير حسان ﷺ إلى صنيع المشركين وجهلهم، حين ساقوا جيوشهم من بني كنانة لقتال النبي ﷺ والمسلمين وكيف أنهم رجعوا خائبين خاسرين أمام جند الله الذين أذاقوهم مرارة الهزيمة، بل يشير حسان ﷺ إلى صنيع المسلمين بأسرى بدر الذين أطلقوهم بلا ثمن، ليعلم أولئك الظلمة النَّصر الذي حققه المسلمون وعلو مكانته.

أمَّا كعب بن مالك ﷺ فقد أجاب هُبيرة بقصيدة طويلة وصفت ما دار في غزوة أحد، وما حفلت به الموقعة من شدة وضراوة، حيث بدأ قصيدته بوصف مكان المعركة، وأنها كانت

أرضاً صعبة المسالك وعرة الدروب، لا يسلكها إلا حمر الوحش أو النعام، وقد امتلأت بالجيف من مخلفات الوحوش وعظام الفرائس، يقول: (زلط، 1403هـ 163)

أَلَا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدُونَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ حَرْقٌ سَيَرُهُ مُتَنَعِّعٌ⁽³⁾

صَحَارٍ وَأَعْلَامٌ كَأَنَّ قَتَامَهَا مِّنَ الْبُعْدِ نَفْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعٌ⁽⁴⁾

تَظَلُّ بِهِ الْبُزْلُ الْعَرَامِيسُ رُزْحاً وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينَ فَيَمْرَعُ⁽⁵⁾

بِهِ جَيْفُ الْحَسْرِ يَلُوحُ صَلِيحُهَا كَمَا لَاحَ كِتَانُ التَّجَارِ الْمَوْضَعُ⁽⁶⁾

بِهِ الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمَشِينَ خَلْفَةً وَبِيضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ⁽⁷⁾ يَتَقَلَّعُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 222)

ثمَّ يصف كعب رضي الله عنه بطولة المؤمنين الدائدين عن دين الله، مذكراً المشركين في أحد بهزيمتهم الساحقة التي واجهتهم في بدر، يقول:

مُجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلِّ فَخْمَةٍ⁽⁸⁾ مُدْرِيَّةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ⁽⁹⁾

وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصُّوَانِ كَأَنَّهَا إِذَا لُبِسَتْ نِهْيٌ مِنَ الْمَاءِ مُتْرَعٌ⁽¹⁰⁾

وَلَكِنْ يَبْدُرُ سَائِلُوا مَنْ لَقِينُمْ مِنَ النَّاسِ، وَالْأَنْبَاءُ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 223)

ثم يشير كعب رضي الله عنه إلى الاستعداد النفسي لتلك الموقعة، وكيف أنَّ الكفار ضربوا خيامهم وأبنيتهم بأرض المعركة، ورأى المؤمنون كثرتها فتشاوروا فيما بينهم ماذا يمنعهم من السكوت على ما بدأهم به الكفار؟ وكيف لا يتشاورون مع رسول الله ﷺ فيما ينبغي فعله؟ فقولُه الحقُّ، ومن أعرض عن نصحه فقد باء بالخسران، وبعد المشاورة أبان لهم الرسول ﷺ أنَّ من كانت نيته للجهاد حقيقةً والطَّمع فيما عند الله تعالى فعليه أن يشمِّر لذلك؛ ليظفر بما أعدَّه الله - عزَّ وجلَّ - لعباده المؤمنين الصادقين (زلط، 1403هـ 165)، وفي ذلك يقول:

وَلَمَّا ابْتَنَّا بِالْعِرْضِ⁽¹¹⁾ قَالَ سَرَاتْنَا عَلَامٌ إِذَا لَمْ نَمْنَعِ الْعِرْضَ نَزَرُغُ؟

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتَّبِعُ أَمْرَهُ	إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لَا نَتَطَلَّعُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ	يُنْزَلُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا ⁽¹²⁾	إِذَا مَا اشْتَهَى أَنَا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدَا لَنَا	ذَرُّوا عَنْكُمْ هَؤُلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِي الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا	إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيُرْجِعُ
وَلَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُمْ وَتَوَكَّلُوا	عَلَى اللَّهِ إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ
فَسَرْنَا عَلَيْهِمْ جَهْرَةً فِي رِحَالِهِمْ	ضَحِيًّا عَلَيْنَا الْبَيْضُ لَا نَتَخَشَّعُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 224-225)

ثم يصل كعب عليه السلام إلى وصف المعركة وأحداثها، بدءاً من بيان عدد المقاتلين من الطرفين، وانتهاءً بما حدث في أرض المعركة من التحام الجيشين، حيث تُسدّد الطّعنات، وتُصوّب الرماح، وتهرع الخيول، وتسبح في الفضاء كأنّها الجراد المنتشر (زبط، 1403هـ/166)، وفي ذلك يقول:

فَجِئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ	أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعٌ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ ⁽¹³⁾	ثَلَاثُ مِئِينَ إِنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِي الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا	نُشَارِعُهُمْ ⁽¹⁴⁾ حَوْضَ الْمَنَايَا وَنَشْرَعُ
تَهَادَى قِسِيُّ النَّبْعِ فِينَا وَفِهِمْ	وَمَا هُوَ إِلَّا الْيُثْرِيُّ ⁽¹⁵⁾ الْمُقْطَعُ
وَمَنْجُوفَةٌ حَرْمِيَّةٌ صَاعِدِيَّةٌ ⁽¹⁶⁾	يُنْذِرُ عَلَيْهَا السُّمُّ سَاعَةً تُصْنَعُ
تَصُوبُ بِأَبْدَانِ الرِّجَالِ وَتَارَةً	تَمُرُّ بِأَعْرَاضِ الْبِصَارِ تُقْعَقِعُ ⁽¹⁷⁾
وَحَيْلٌ تَرَاهَا بِالْفَضَاءِ كَأَنَّهَا	جَرَادٌ صَبَأٌ فِي قَرَّةٍ يَتَرَبَّعُ ⁽¹⁸⁾
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الرِّحَى	وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَهُ اللَّهُ مَدْفَعُ

ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سِرَاجَهُمْ⁽¹⁹⁾

كَأَنَّهُمْ بِالْقَاعِ خَشَبٌ مُصَرَّعٌ

فَنَلْنَا وَنَالَ الْقَوْمُ مِنَّا وَرُبَّمَا

فَعَلْنَا، وَلَكِنْ مَا لَدَى اللَّهِ أَوْسَعُ

وَدَارَتْ رَحَانَا، وَاسْتَدَارَتْ رَحَاهُمْ

وَقَدْ جُعِلُوا كُلٌّ مِنَ الشَّرِّ يَشْبَعُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 225-227)

ويختتم كعب عليه السلام قصيدته بتعداد صفات جيش المسلمين في أنهم يقدمون على الحرب متى كانت دفاعاً عن عرض أو عقيدة وليس لمغنم دنيوي، وأنهم تدربوا على الحرب وألفوها، فلا يهابون أعداءهم، ولا يتراجعون في المواجهة، وقد عرفوا آداب القتال فلا يجزعون إن أُصيبوا، فالحرب سجال دائماً، وإن ظفروا بالعدو فلا فحش ولا تمثيل بالقتلى أو إذلال للأسرى وإنما منهج الإسلام في معاملة المتحاربين والأسرى (زبط، 1403هـ 168)، حيث يقول كعب واصفاً بطولة ذلك الجيش المسلم:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً

عَلَى كُلِّ مَنْ يَحْمِي الدِّمَارَ⁽²⁰⁾ وَيَمْنَعُ

وَلَكِنَّا نَقْلِي الْفِرَارَ، وَلَا نَرَى الْـ

فِرَارَ لِمَنْ يَرْجُو الْعَوَاقِبَ يَنْفَعُ

جِلَادٌ⁽²¹⁾ عَلَى رِيبِ الْحَوَادِثِ لَا تَرَى

عَلَى هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرُ تَدْمَعُ

بُنُو الْحَرْبِ لَا نَعْيَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ

وَلَا نَحْنُ مِمَّا جَرَّتِ الْحَرْبُ نَجْزُهُ

بُنُو الْحَرْبِ إِنْ نَظَفَرُ فَلَسْنَا بِفُحْشٍ

وَلَا نَحْنُ مِنْ أَظْفَارِهَا نَتَوَجَّعُ

وَكُنَّا شَهَابًا يَتَّقِي النَّاسُ حَرَّهُ

وَيَفْرُجُ عَنْهُ مِنْ يَلِيهِ وَيُسْقَعُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 227-228)

وبينما كانت المعارك تدور بين المسلمين والمشركين فقد كان هناك من يفخر من المشركين بما تحقق في غزوة أحد ناسياً صنيع المسلمين في بدر، ومن أولئك الشعراء عبد الله بن الزبيري⁽²²⁾ الذي افتخر في إحدى قصائده التي يقول فيها:

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ

إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلَ

كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ

مَاجِدٍ الْجَدِّينِ مِقْدَامٍ بَطْلَ

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرِ شَهَدُوا

جَزَعَ الْخَزْرَجُ مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ

(الجبوري، 1398هـ 41-42)

فانبرى له حسان بن ثابت رضي الله عنه يردّ عليه، ويبين له أنّ الحرب سجال بين الطرفين، وأنّ المسلمين قد نالوا من المشركين في أحد كما نال المشركون منهم، مذكراً إيّاه بما لاقوه من الهزيمة في ((بدر))، وكيف قتل سادتهم، وهرب فرسانهم في تلك الموقعة، وباءوا بالخزي والخذلان، حيث يقول حسان رضي الله عنه:

ذَهَبَتْ بَابِنِ الرِّبْعَى وَقَعَةٌ

كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فَمَا لَوْ عَدَلُ

ولقد نلتهم ونلنا منكم

وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ أحياناً دُولُ

نَضَعُ الْأَسْيَافَ فِي أَكْتَافِكُمْ

حيثُ تهوي عللاً بعد مهلُ

إِذْ تُؤْلُونَ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

هُرباً في الشَّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسْلِ⁽²³⁾

إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً

فأجأناكم إلى سَفْحِ الْجَبَلِ

وعَلَوْنَا يَوْمَ (بَدْرٍ) بِالنَّقَى

طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَصْدِيقِ الرُّسْلِ

وَتَرَكْنَا فِي قُرَيْشٍ عَوْرَةً

يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَادِيثَ الْمَثَلِ

(ديوان حسان، 1983م، 93-94)

أمّا كعب بن مالك رضي الله عنه فيردّ في قصيدته اللامية على كلّ من تناول على المسلمين من شعراء قريش، ويوضح لهم أنّه إذا كان هناك من قادة المسلمين من قُتل في (أحد)، وهو ما أفرح المشركين وشعراءهم فإنّ عليهم أن يعودوا بذاكرتهم إلى ما أصابهم في (بدر)، وما واجهوه من صور البطولة والتّضحية التي أبداها المسلمون (زلط، 1403هـ 170)، حيث يقول:

أَبْلَغُ قُرَيْشاً وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ

وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ مَقْبُولُ

أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلَانَا سَرَاتَكُمْ

أَهْلَ اللَّوَاءِ، ففيم يكثرُ القيلُ؟

ويومَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ

فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِكَالٌ وَجَبْرِيلُ

وَالْقَتْلُ فِي الْحَقِّ عِنْدَ اللَّهِ تَفْضِيلٌ

إِنْ تَقْتُلُونَا فَدِينُ اللَّهِ فِطْرَتُنَا

فَرَأَى مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلٌ

وَإِنْ تَرَوْا أَمْرُنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهًا

إِنَّ أَخَا الْحَرْبِ أَصْدَى اللَّوْنِ

فَلَا تَمْنُوا لِقَاحَ الْحَرْبِ وَاقْتَعِدُوا

عُرْجُ الضَّبَاعِ لَهُ خَذَمٌ رَعَابِيلٌ⁽²⁴⁾

إِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا ضَرْبًا تَرَاخُ لَهُ

وعندنا لذوي الأضعفان تنكيلٌ

إِنَّا بَنُو الْحَرْبِ نَمْرِهَا وَنَنْتَجِبُهَا

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 255-256)

وكما يظهر فقد أثرت غزوة أحد في نفوس الشعراء في عهد النبي ﷺ، ودعيتهم إلى التجاوب معها، والتعبير عن مواقفها وأحداثها، والتصدي لمن حاول الإساءة للنبي ﷺ وللمسلمين، وهو ما قام به شعراء المشركين بعد الموقعة، الأمر الذي دعا شعراء المسلمين إلى الرد عليهم، وكشف أكاذيبهم وتخريصاتهم، وبيان أثر الإسلام في كل ما تحقق للمسلمين من عزّة ومنعة.

(3) غزوة الخندق:

في السنة الخامسة للهجرة تجمعت قوى الشرك لمحاربة النبي ﷺ والمسلمين بالمدينة، وتزعم أبو سفيان تلك الجموع من القرشيين ومن والاهم من غطفان والقبائل المجاورة، ويأتي الجميع إلى المدينة المنورة قاصدين القضاء على الإسلام بجحافلهم وعدتهم الحربيّة التي لم يكن للمسلمين قبلها، ولم يكتفوا بذلك بل تعاقدوا مع يهود بني قريظة في حصونهم حول المدينة من أجل القضاء على المسلمين.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بتآمرهم وتحزّبهم جمع المسلمين وأعلمهم ما عزم عليه أبو سفيان ومنّ والاه من غطفان واليهود، وتشاور معهم، وانتهت مشورتهم بحفر خندق حول المدينة حتّى يمكنهم التّحصّن فيها، فإذا دهمهم العدو نالوه ولا ينالهم، وبدأ المسلمون حفر الخندق، وكان الرسول ﷺ يعاونهم في حفره ويشدّ من عزيمتهم، ويرغبهم فيما عند الله تعالى من الأجر (زلط، 1403هـ 194)، حتّى إذا اكتمل حفر الخندق جاءت فلول المشركين التي تجمعت من قبائل عدّة، وتحزّبت لحرب المسلمين، يقودهم إلى ذلك طمعهم واستكبارهم وعتوهم، حيث نزلوا بجانب أحد (ابن هشام، 1375هـ 216/2-217)، وهناك ظهر لهم المسلمون الذين كان عددهم يقدر بثلاثة آلاف، والخندق يفصل بين الفريقين،

فخرج من بين صفوف المشركين عمرو بن ود العامري - وكان معلماً - وقال: مَنْ يُبارز؟ فخرج له من المسلمين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام وقال له: يا عمرو إنَّكَ عاهدتَ الله ألاَّ يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خلتين إلاَّ أخذتها منه، فقال له: أجل، فقال له عليٌّ: فإنِّي أدعوك إلى الزَّال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك، فقال له عليٌّ: لكَيَّ والله أحبُّ أن أقتلك، فحبي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعفره، وضرب وجهه، ثمَّ أقبل على عليٍّ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ عليه السلام وخرجت خيلهم منهزمة، حتَّى اقتحمت من الخندق هاربةً (ابن هشام، 1375 هـ/225).

وقد وصف عليٌّ عليه السلام ذلك الحدث والموقف الشجاع الذي أبان عن قوَّة المسلمين في مواجهة أعداء الإسلام في أبيات شعريَّة، قال فيها:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةٍ رَأَيْهِ وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَائِي

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلاً كَالْجِدْعِ بَيْنَ دَكَاكٍ وَرَوَائِي ⁽²⁶⁾

وَعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَرَزِي أَثْوَابِي ⁽²⁷⁾

لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ

(ابن هشام، 1375 هـ/225)

وقد شكَّك ابن هشام في نسبة هذه الأبيات لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام (ابن هشام، 1375 هـ/225).

ولم يكن تحرُّب الأعداء واتِّحادهم لحرب المسلمين أمراً يثير الهيبة أو الخوف في قلوب المجاهدين، الذين نذروا أنفسهم للدِّفاع عن عقيدتهم، ونصرة نبيِّهم صلى الله عليه وآله حيث لقاء الأعداء هو لقاء الشَّجاعة، والنُّصرة، والتَّضحية لقوم دَرَبوا على القتال، وعَلَّموا أنفسهم في الحرب حتَّى أصبحوا ظاهرين للنَّاس جميعاً، وكأَنَّهُمْ أسود يحمون عرينهم، ويدافعون عن رسالتهم الخالدة... (زلط، 1403 هـ/196) وهي المعاني التي أشار إليها كعب بن مالك رضي الله عنه في قصيدته التي قالها يوم الخندق، حيث قال:

مَنْ سَرَّهُ ضَرْبُ يَمْعُوعٍ بِعُضِّهِ بَعْضاً كَمَعْمَعَةِ الْأَبَاءِ الْمُحَرَّقِ ⁽²⁸⁾

فَلَيَّاتٍ مَأْسَدَةً تُسَنُّ سَيُوفُهَا بَيْنَ الْمَذَادِ وَبَيْنَ جِرْعِ الْخَنْدَقِ ⁽²⁹⁾

مُهَجَّاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ

دَرَبُوا بِضَرْبِ الْمُعْلِمِينَ⁽³⁰⁾ وَأَسْلَمُوا

بِهِمْ، وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقٍ

فِي عُصْبَةٍ نَصَرَ الْإِلَهَ نَبِيَّهُ

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 244)

ويمضي كعب عليه السلام في قصيدته إلى وصف السِّلاح، فيصوِّر الدُّروع تحكي حلقاتها في سردها المحكم وشكلها الموثق أحداق الجنادب، فهي مستديرة الحلق، تشمِرها للحرب حمائل السُّيوف الصَّارمة، حيث يقول:

كَالْهَيِّ⁽³¹⁾ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَفِّقِ

فِي كُلِّ سَابِغَةٍ تَخْطُ فُضُولُهَا

حَدَقَ الْجَنَادِبِ ذَاتَ شَكِّ مُوثِقِ⁽³²⁾

بَيَضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا

صَافِي الْحَدِيدَةِ صَارِمِ ذِي رَوْثِ

جَدَلَاءَ يَحْفِزُهَا نِجَادُ⁽³³⁾ مُهَنْدٍ

يَوْمَ الْهَيَّاجِ وَكُلَّ سَاعَةٍ مَصْدَقِ

تَلْكُمُ مَعَ التَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 245)

والبيت الأخير يصوِّر أُهُمِّيَّةَ التَّقْوَى والإيمان في الحروب التي يخوضها المسلمون؛ إذ ليس من طبعهم أن يركنوا إلى العُدَّة المادِّيَّة دون أن يدَّخروا في نفوسهم زاد التَّقْوَى الذي يوصلهم إلى غايتهم الكبرى التي يبتغونها من وراء نصرتهم للإسلام. أمَّا الإعداد للمعركة- وهو الجانب الذي أمر به المسلمون وهم يواجهون أعداءهم- فيشير إليه كعب بن مالك من خلال إعداد الخيول الأصيلة المضْمَرَّة، التي تصعد بفرسانها إلى حلبة القتال، وتمكّنهم من اصطلياد أعدائهم، والظَّفَر عليهم، يقول:

وَرَدٍ وَمَحْجُولِ الْقَوَائِمِ أَبْلَقِ⁽³⁴⁾

وَنَعْدُ لِلْأَعْدَاءِ كُلِّ مَقْلَصٍ

عِنْدَ الْهَيَّاجِ أُسُودُ طَلٍّ مُلْتَقِ⁽³⁵⁾

تَرْدَى بِفُرْسَانٍ كَأَنَّ كُمَاتِهِمْ

تَحْتَ الْعِمَائَةِ بِالْوَشِيحِ الْمُرْهِقِ⁽³⁶⁾

صُدُقُ يُعَاطُونَ الْكَمَاءَ حُثُوفَهُمْ

فِي الْحَرْبِ، إِنَّ اللَّهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ

أَمَرَ الْإِلَهَ بِرِبْطِهَا لِعَدُوِّهِ

لِلدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ حُيُولُ الزُّزْقِ⁽³⁷⁾

لِتَكُونَ غِيْظًا لِلْعَدُوِّ وَحَيْطًا

مَنْهُ، وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةً نَلْتَقِي

وَيُعِينُنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ بِقُوَّةٍ

وَإِذَا دَعَا لِكَرِيمَةٍ لَمْ نُسْبِقِ

وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُحِبُّهُ

وَمَتَى نَرِ الْحَوَمَاتِ (38) فِيهَا نُعْنِقِ

وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِيهَا

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 246-247)

وفي هذه الموقعة تظهر أكثر من قصيدة شعرية وهي تنافح عن المسلمين، وترد عادية الأعداء، ومن تلك القصائد قصيدة حسان بن ثابت رضي الله عنه التي تصدّى فيها للرّدّ على شاعر الكفار آنذاك عبد الله بن الزبير الذي أخذ يفتخر بموقف قومه يوم الخندق، ويتناول على المؤمنين، وذلك في قصيدته البائية (39). حيث نظم حسان بانيته التي يرّد فيها على ابن الزبير، ويبيّن له الهدف البائس الذي جاءوا من أجله وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم والاستيلاء على الغنائم، ولكنهم لم يظفروا من ذلك بشيء، يقول حسان:

قَتَلَ النَّبِيَّ وَمَغْنَمَ الْأَسْلَابِ

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَجَوْا

رُدُّوا بِغَيْظِهِمْ عَلَى الْأَعْقَابِ

وَعَدُوا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ

وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الْأَرْبَابِ

يُهْبُوبُ مُعْصِفَةً تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ

وَأَنَابَهُمْ فِي الْأَجْرِ خَيْرُ ثَوَابِ

وَكَفَى الْإِلَهَ الْمُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ

(ديوان حسان، 1983م، 120)

ومن شعراء المشركين من ظلّ يتوعّد بعد هزيمة الخندق، ويعد برّ قاسٍ في موقعة لاحقة يصطف منها جيش المشركين لمنازلة المسلمين، وذلك ما يعبر عنه شاعرهم ضرار بن الخطاب (40) الذي رأى أنّ المعركة لم تنته بعد، وأن المنازلة ستكون قريبة، حيث يعبر عن ذلك في قصيدته النونية التي قال فيها:

وَقَدْ قُدْنَا عَرْنَدَسَةً طَحُونَا (41)

وَمُشْفِقَةً تَطُنُّ بِنَا الظُّنُونَا

كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِينَا

وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ

كَأَسَدِ الْغَابِ قَدْ حَمَتِ الْعَرِينَا

بِجَمْعٍ مِنْ كِنَانَةٍ غَيْرِ عَزَلٍ

(ابن هشام، 1375هـ، 254-255)

لكنَّ كعب بن مالك رضي الله عنه يردُّ على ضرار بن الخطَّاب، ويوضِّح له طبيعة القتال معه، وأسباب النَّصر التي تنزل عليهم من خالقهم، فهم يسعون إلى رفع راية الإسلام، يتقدَّمهم النَّبيُّ صلى الله عليه وآله الذي دعاهم إلى دين الهدى والحقِّ، وحثَّهم على الصَّبْر واليقين في مواجهة الأعداء، حيث قال:

وسائلةٌ تُسائلُ ما لقينا	ولو شهدت رأيتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدلاً ⁽⁵⁾	على ما نابنا متوكليناً
وكان لنا النبيُّ وزير صدقٍ	به نعلو البرية أجمعيناً
نقاتلُ معشراً ظلموا وعقوا	وكانوا بالعداوة مُرصديناً ⁽⁴²⁾
نُعاجلهم إذا نهضوا إلينا	بضربٍ يُعجلُ المتسرعيناً
وفي أيماننا بيضٌ خفافٌ	بها نشفي مراح الشاغبيناً ⁽⁴³⁾
بباب الخندقين كأنَّ أسداً	شوابكهنَّ يحمين العريناً
لننصر أحمداً واللَّهَ حتَّى	نكون عبادَ صدقٍ مُخلصيناً
ويعلم أهلُ مكة حين ساروا	وأحزاب أتوا متحزبيناً
بأنَّ الله ليس له شريكٌ	وأنَّ الله مولى المؤمنيناً

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 279-280)

وقد أراد الرَّسولُ صلى الله عليه وآله أن يؤمِّن المدينة وحدودها بعد موقعة الخندق مع قريش وبخاصَّة من الفتنة التي كان يوقد جذوتها يهود بني قريظة وبني النَّضير، الذين اشتركوا في موقعة الخندق مع قريش، وقصدوا إثارة الفتنة بين النَّاس في المدينة أثناء الموقعة، حيث نقضوا عهود الأمان التي أبرمها المسلمون، ولجأوا للغدر والمكيدة، لأجل ذلك وجَّه النَّبيُّ صلى الله عليه وآله جيشه لمحاربتهم، حيث حاصره في حصونهم، وانتصر عليهم، وباءت كل مكائدهم بالفشل، ونالوا جزاء ما كانوا يفعلونه مع المسلمين من الإخلاف بالعهد والتَّحالف مع المشركين، يقول حسان رضي الله عنه:

وَحَلَّ بِحِصْنِهَا ذُلُّ ذَلِيلٍ

لَقَدْ لَقِيتُ قُرْنُظَةً مَا سَاءَهَا

غَزَاهُمْ فِي دِيَارِهِمُ الرَّسُولُ

فَمَا بَرَحُوا يَنْقُضِ الْعَهْدَ حَتَّى

لَهُ مِنْ حَرٍّ وَقَعَتْهَا صَلِيلُ

أَحَاطَ بِحِصْنِهِمْ مِنَّا صُفُوفٌ

أَقَامَ لَهُمْ بِهَا ظِلٌّ ظَلِيلُ

وَصَارَ الْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ خُلْدٍ

(ديوان حسان، 1983م، 245)

(4) غزوة مؤتة:

كانت غزوة مؤتة - في السنة الثامنة للهجرة - أول معركة تقع بين جيش المسلمين وجيش الروم الذين وصلتهم الأخبار عن قوة ذلك الجيش المسلم، وكان سبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير بكتاب إلى أمير (بصرى) من جهة هرقل، وهو الحارث بن أبي شمّر الغساني، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ اشتد ذلك عليه، وجهز جيشاً لمقاتلة ملوك الروم (الوكيل، 1408هـ 237). وقد أمر ﷺ مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف من المسلمين، وندب الناس وقال لهم: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل ابن رواحة فليترض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم (ابن هشام، 1375هـ 273/2). والتقى الجيشان جيش المسلمين وجيش الروم - الذي كان يقدر عدده بمائتي ألف مقاتل - في مكان يقال له مؤتة، فقاتل زيد بن حارثة ﷺ براية رسول الله ﷺ حتى قُتل في رماح القوم، ثم أخذ الراية من بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فقاتل بها حتى إذا ألحمة القتال، وأحاط به العدو من كل جانب، اقتحم عن فرس له شقراء فعفرها حتى لا تقع في يد العدو، ثم أقبل يقاتل وهو يردد أبياتاً تحمل معاني الشجاعة والبسالة والتضحية في ما عند الله من النعيم والرضوان، ودخول الجنان، فهو يقاتل ابتغاء ما عند الله، والجنة عنده أسمى مطلوب، وفي ذلك يقول ﷺ:

طَيِّبَةٌ وَبَارِدًا شَرَابُهَا

يَا حَبْدَا الْجَنَّةِ وَاقْتَرَابُهَا

كَافِرَةٌ بَعِيدَةٌ أَنْسَابُهَا

وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا

عَلَيَّ إِذْ لَاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

(ابن هشام، 1375هـ / 378/2)

ثم قاتل حتى قُتل ﷺ .

ثم أخذ الرّاية من بعده عبد الله بن رواحة ﷺ فتقدّم يقاتل الرُّوم، فداخل نفسه شيء من روع لا يخلو منه الموقوف، فجعل يحفز نفسه ويشد من عزمته، وهو يردد بعض الأبيات الشعريّة التي يقول فيها:

لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكَرِهَنَّ

أَفْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ

مَالِي أَرَاكَ تَكْرِهِينَ الْجَنَّةَ

إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّثَّةَ⁽⁴⁴⁾

هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي سَنَةٍ

قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً

(ديوان عبد الله بن رواحة، 1408هـ، 153)

ثم تقدّم يقاتل، فأصيبت إصبه، فارتجز قائلاً:

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ

هَذَا حِيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَيْتِ

يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي

إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ

وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ لَقِيتِ

وَأِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شَقِيتِ

(ديوان عبد الله بن رواحة، 1408هـ، 154)

فقاتل حتى قُتل ﷺ.

ومن القصص التي تروي صور البطولة والإقدام في حياة الشاعر عبد الله ابن رواحة ﷺ تلك التي رواها ابن هشام. إذ يروي أنّ رسول الله ﷺ حين جهّز جيش المسلمين لملاقاة الرُّوم، وكان ابن رواحة القائد الثالث للمعركة إن استشهد سابقاه، وهما زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب -رضي الله عنهما- فلمّا ودّع عبد الله من رسول الله مع من ودّع بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حبُّ الدُّنيا ولا صباة بكم، ولكي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيةً من كتاب الله -عزَّ وجلَّ- يذكر فيها النَّارَ ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (مريم: 71)، فليست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صَحِبَكُمْ اللَّهُ، ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين (ابن هشام، 1375هـ).

273/2-274)، ثم أنشد ابن رواحة أبياتاً يعبر فيها عمّا في نفسه وهو يسير في الجهاد راجياً مغفرة ربّه ورضوانه، والفوز بالشهادة في سبيله، إذ قال:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْدِفُ الزَّيْدَا⁽⁴⁵⁾

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيَّ حَرَّانَ مُجَهِّزَةً بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا⁽⁴⁶⁾

حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَاظٍ وَقَدْ رَشَدَا

(ديوان عبد الله بن رواحة، 1408هـ، 147)

وكان المسلمون لما نزلوا (معان) من أرض الشام هالهم ما رأوا من كثرة عدد الروم وما يملكونه من عتاد، وبدأوا يفكرون في ذلك، وهل يرسلون إلى الرسول ﷺ يخبرونه بذلك أم لا ؟ فقام عبد الله بن رواحة ﷺ يشجعهم ويستحثهم على القتال، مبيّناً لهم أنّ النصر لا يتحقق عن كثرة العدد أو العُدّة وإنّما يتحقق بالصبر والمصابرة والطاعة والإخلاص في إعلاء راية الإسلام، وهزيمة المشركين، فالمجاهد في سبيل الله يقاتل الأعداء وهو يرجو الظفر بإحدى الحسينين، إمّا النصر وإمّا الشهادة في سبيل الله (ابن هشام، 1375هـ 275/2). فتشجّع الناس وقالوا: قد -والله- صدق ابن رواحة، وأنشد في ذلك الموقف يقول:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَجَاٍ وَفَرَعٍ⁽⁴⁷⁾ تَغَرُّ مِنَ الْحَشِيشِ لَهَا الْعُكُومُ⁽⁴⁸⁾

حَذَوْنَاهَا مِنَ الصَّوَّانِ سَبْتًا أَزَلَّ كَأَنَّ صَفْحَتَهُ أَدِيمُ⁽⁴⁹⁾

أَقَامَتْ لَيْلَتَيْنِ عَلَى مَعَانٍ فَأَعْقَبَ بَعْدَ فَتْرَتِهَا جُومُ⁽⁵⁰⁾

فَرُحْنَا وَالْجِيَادُ مُسَوَّمَاتٌ⁽⁵¹⁾ تَنْفَسُ فِي مَنَاخِرِهَا السُّمُومُ

فَلَا وَابِي مَابٍ⁽⁵²⁾ لِنَاتِيئِهَا وَإِنْ كَانَتْ بِهَا عَرَبٌ وَرُومُ

فَعَبَّأْنَا أَعْنَتَهَا فَجَاءَتْ عَوَاسٍ، وَالْعُبَاؤُ لَهَا بَرِيمُ⁽⁵³⁾

بِذِي لَجَبٍ كَأَنَّ الْبَيْضَ فِيهِ إِذَا بَرَزَتْ قَوَانِسُهَا النُّجُومُ⁽⁵⁴⁾

فَرَاضِيَةٌ⁽⁵⁵⁾ الْمَعِيشَةِ طَلَقَهَا أَسْنَتَهَا، فَتَنَكَّحُ أَوْ تَتِيمُ

(ديوان عبد الله بن رواحة، 1408هـ، 149-150)

وفي ليلة السفر إلى مؤتة، وبينما كان الطريق طويلاً وشاقاً، كان عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه يستغرق في الأمل بالشهادة والفوز برضوان الله - عز وجل - إذ ذهب يناجي ناقتة، ويبدئها بتحريرها من الأسفار، فلا عودة إلى بلاد النخيل، لأنه عزم في قرارة نفسه على شدة الرجال إلى جوار ربه - جلّ وعلا - حيث يقول:

مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْجِسَاءِ ⁽⁵⁶⁾

إِذَا أَدَيْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي

أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي

فَشَأْنُكَ أَنْعُمٌ، وَخَلَائِكُ دَمٌ وَلَا

بَارِضِ الشَّامِ مُشْتَبِي الثَّوَاءِ

وَجَاءَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي

إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِحَاءِ

وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ

وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رَوَاءِ

هُنَالِكَ لَا أَبَالِي طَلَعَ بَغْلٍ ⁽⁵⁷⁾

(ديوان عبد الله بن رواحة، 1408هـ، 151)

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تعلُّق الشاعر بالشهادة، والسَّير لأجلها على راحلته، التي بلغته رحلته المأمولة، ولقي ما كان يرجوه من الاستشهاد في سبيل الله، والفوز برضوانه - عز وجل - وهي صورة مؤثرة تعكس روح التضحية والفداء التي قدّمها أولئك المجاهدون في تلك الغزوات.

(5) فتح مكة:

كانت الإرهاصات لهذا الفتح المجيد منذ وقت مبكر، ففي نهاية العام السادس للهجرة عزم النبي ﷺ أن يدخل مكة معتمراً، فاستنفر المؤمنين بالمدينة ليخرجوا معه، فلمّا شعر أهل مكة بقدمه أرسلت إليه قريش تستطلع الأمر أفتال أم عمرة، فلمّا علموا بحقيقة الموقف أخذتهم العزة بالإثم، وطلبوا عقد هدنة مع النبي ﷺ والمسلمين تقضي بأن يكف عنهم القتال لعشرة أعوام وأن يرجع إلى المدينة عامهم هذا، فإذا انصرم جاء ومن معه من المسلمين معتمرين في العام القابل، وبعد عودته ﷺ إلى المدينة جرت أحداث كثيرة نقض المشركون خلالها الهدنة وأغاروا على (خزاعة) الداخلة في عهد رسول الله ﷺ، فجهّز -عليه السلام- الجيش المؤمن وقاده إلى مكة، وحمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه اللواء، وفتحت مكة ودخلها رسول الله ﷺ ومن معه وكان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين (زبط، 1403هـ، 221-222).

وقد واكب الشَّعر ذلك الفتح، وأشاد الشُّعراء بما تحقَّق للمسلمين في هذا الفتح من عزٍّ ومنعة ونصر للإسلام، حيث أظهرت القصائد الشَّعرية قدرة جيش المسلمين على الفتح، وتمكين الله تعالى لهم. ومن ذلك ما يظهر في قول بُجير بن زهير⁽⁵⁸⁾ حين يصف هذا الفتح، ويشير إلى الطريقة التي التقى فيها الجمعان، جيش المسلمين بعزيمته وصبره وتوكله على الله تعالى، وجيش الكفر بتخاذله وانكساره، فكانت الصَّيحات والطَّعان وقفزات خيل المؤمنين معبرةً عن الفرح بنصر الله، فقد أنهال المؤمنون على خصومهم ضرباً بالسيوف، وطعنًا بالرمح، حتَّى تحقَّق لهم ما كانوا يأملون فيه من الهجرة، وباء الكفَّار بالهزيمة والخسران، وفي ذلك يقول بُجير:

بَيِّ الْخَيْرِ بِالْبَيْضِ الْخِفَافِ

ضَرَبْنَاَهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ الذِّ

وَأَلْفٍ مِنْ بَنِي عُثْمَانَ وَافٍ

صَبَحْنَاهُمْ بِسَبْعِ⁽⁵⁹⁾ مِنْ سُلَيْمٍ

وَرَشَقًا بِالْمَرِيَشَةِ اللَّطَافِ⁽⁶⁰⁾

نَطًا أَكْتَافَهُمْ ضَرْبًا وَطَعْنًا

كَمَا انصَاعَ الْفُوقُ مِنَ الرِّصَافِ⁽⁶¹⁾

تَرَى بَيْنَ الصُّفُوفِ لَهَا حَفِيفًا

بَارْمَاحٍ مَقُومَةِ الثَّقَافِ

فَرَحْنَا وَالْجِيَادُ تَجُولُ فِيهِمْ

وَأَبُوا نَادِمِينَ عَلَى الْخِلَافِ

فَأَبْنَا غَانِمِينَ بِمَا اشْتَهَيْنَا

مَوَائِقَنَا عَلَى حُسْنِ النَّصَافِ

وَأَعْطَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَنَّا

غَدَاةَ الرَّوْعِ مِنَّا بِانْصِرَافِ

وَقَدْ سَمِعُوا مَقَالَتَنَا فَهَمُّوا

ويتوقَّف العباسُ بن مرداس السُّلمي⁽⁶²⁾ عند فتح مكَّة بعد أن اشترك مع قومه من بني سُليم في ذلك الفتح، حيث يبيِّن في إحدى قصائده القوَّة العددية لقومه الذين شاركوا تحت إمرة النَّبِيِّ الْكَرِيم ﷺ موضحاً ما كانوا عليه من الإقدام، والبسالة، والتَّضحية من أجل تحقيق النَّصر، حيث يقول:

أَلْفٌ تَسِيلُ بِهِ الْبِطَاحُ⁽⁶³⁾ مُسَوِّمٌ

مِنَّا بِمَكَّةَ يَوْمَ فَتَحِ مُحَمَّدٍ

وَشِعَارُهُمْ⁽⁶⁴⁾ يَوْمَ اللَّقَاءِ مُقَدَّمٌ

نَصَرُوا الرَّسُولَ، وَشَاهَدُوا أَيَّامَهُ

ضَنْكَ كَأَنَّ الْهَامَ فِيهِ الْخَنْتُمْ⁽⁶⁵⁾

فِي مَنْزِلٍ نَبَّتَتْ بِهِ أَقْدَامُهُمْ

جَرَتْ سَنَابِكُهَا بِنَجْدٍ قَبْلَهَا

حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا الْحِجَارُ الْأَذْهَمُ

اللَّهُ مَكْنَهُ لَهُ وَأَذَلَّهُ

حُكْمُ السُّيُوفِ لَنَا وَجَدٌ مِزْحَمٌ⁽⁶⁶⁾عَوْدُ الرِّيَاسَةِ شَامِخٌ⁽⁶⁷⁾ عِرْنِينُهُ

مُتَطَلِّعٌ ثَغَرَ الْمَكَارِمِ خُضْرُمُ

(ابن هشام، 1375 هـ 426/2-427)

ويصف العباس بن مرداس رحمته الله طريقة الجيش الفاتح في السير إلى الجهاد، وكيف أنهم يسرون تحت إمرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ويطيعونه فيما أمر، ويجتنبون ما نهى عنه، الأمر الذي حقق لهم الفلاح، وأخضع الأقوام للدخول في دين الله، وفي ذلك يقول:

فَمَنْ مَبْلُغُ الْأَقْوَامِ أَنَّ مُحَمَّدًا

رَسُولُ الْإِلَهِ رَاشِدٌ حَيْثُ يَمَّمَا

دَعَا رَبَّهُ وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ وَحْدَهُ

فَأَصْبَحَ قَدْ وَفَّى إِلَيْهِ وَأَنْعَمَا

سَرِينًا وَوَاعَدْنَا قَدِيدًا مُحَمَّدًا

يَوْمُ بَنَّا أَمْرًا مِنَ اللَّهِ مُحْكَمًا

تَمَارَوْا بِنَا فِي الْفَجْرِ حَتَّى تَبَيَّنَا

مَعَ الْفَجْرِ فِتْيَانًا وَغَابًا مُقَوَّمَا

فَإِنَّ سِرَاةَ الْحَيِّ إِنْ كُنْتَ سَائِلًا

سُلَيْمٌ وَفِهِمُ مِنْهُمْ مَنْ تَسَلَّمَا

وَجُنْدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَخْذُلُونَهُ

أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَهُ مَا تَكَلَّمَا

(ابن هشام، 1375 هـ 110/4-111)

وبعد الفتح الإسلامي وما أدخله من فرح في النفوس توجه المسلمون بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الدخول في الإسلام، وبيان موقفهم منه، وكان مع الركب المتجه إلى الطائف كعب بن مالك رضي الله عنه الذي نظم قصيدته في وصف المعارك التي خاضها جيش المؤمنين، وقد تكلمت بالنصر المؤزر، وما تبع ذلك من دخول الناس في دين الله أفواجاً حتى وصل ذلك الجيش إلى الطائف (زبط، 1403 هـ 239)، ليكمل رسالته في نشر الدعوة الإسلامية، حيث يقول كعب في مطلع قصيدته:

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ رُبِّ

وَخَيْرٍ، ثُمَّ أَجْمَعْنَا⁽⁶⁸⁾ السُّيُوفَا

نُخْرِهَا، وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ

قَوَاطِعُهُنَّ: دَوْسًا أَوْ ثَقِيفًا

فَلَسْتُ لِحَاضِنٍ ⁽⁶⁹⁾ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنَّا الْوَفَا
وَنَنْتَرُ الْعُرُوشَ بِبَطْنٍ (وَجٍّ) ⁽⁷⁰⁾	وَتُصْبِحُ دُورَكُمْ مِنَّا خُلُوفَا
وَيَأْتِيكُمْ لَنَا سَرَعَانُ خَيْلٍ	يُعَادِرُ خَلْفَهُ جَمْعًا كَثِيفًا
بِأَيْدِيهِمْ قَوَاضِبُ مُرْهَفَاتٍ	يُزْرَنُ الْمُصْطَلِينَ بِهَا الْحُنُوفَا
كَأَمْثَالِ الْعَقَائِقِ أَخْلَصَتْهَا	قُبُونُ الْهِنْدِ لَمْ تُضْرَبْ كَثِيفًا ⁽⁷¹⁾
تَخَالُ جَدِيَّةُ الْأَبْطَالِ فِيهَا	غَدَاةُ الرَّحْفِ جَادِيًا ⁽⁷²⁾ مَدُوفَا

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 134-135)

وبعد هذه المقدمة التي أبان فيها كعب عليه السلام عما صنعه المسلمون مع أعداء الدعوة الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، انطلق بعد ذلك إلى إنذار المشركين بما ينتظرهم من سوء العاقبة إن لم يتبعوا الطريق الحق، وإشهادهم بأنهم قادمون، فمن أثر السلام فليسلم بما جاء به المصطفى عليه السلام ليعيش عيشة راضية، ومن لم يسلم، أو تحدى نفسه بالموادعة، فليتحمل وزره ووزر من اتبعه، أو استجاب لنصحه (زلط، 1403هـ، 240)، حيث ينطلق كعب في هذا المعنى فيقول:

أَجِدْهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ نَصِيحٌ	مَنْ الْأَقْوَامُ كَانَ بِنَا عَرِيفًا ⁽⁷³⁾
يُخَيِّرُهُمْ بِنَا قَدْ جَمَعْنَا	عِتَاقَ الْخَيْلِ وَالنُّجَبَ الطُّرُوفَا ⁽⁷⁴⁾
وَأَنَا قَدْ أَتَيْنَاهُمْ بِرَحْفٍ	يُحِيطُ بِسُورِ حِصْنِهِمْ صُفُوفَا
رَأَيْسُهُمُ النَّبِيُّ وَكَانَ صَلْبًا	نَقِيَّ الْقَلْبِ مُصْطَرًّا عَزُوفَا
رَشِيدَ الْأَمْرِ دُو حُكْمٍ وَعِلْمٍ	وَحِلْمٍ لَمْ يَكُنْ نَزَقًا خَفِيفَا
نُطِيعُ نَبِيَّنَا وَنُطِيعُ رَبًّا	هُوَ الرَّحْمَنُ كَانَ بِنَا رُؤُوفَا
فَإِنْ تُلْقُوا إِلَيْنَا السَّلْمَ نَقْبَلْ	وَنَجْعَلْكُمْ لَنَا عَضُدًا وَرِيفًا ⁽⁷⁵⁾
وَإِنْ تَأْبُوا نَجَاهِدْكُمْ وَنَصِيرُ	وَلَا يَكُ أَمْرُنَا زَعِشًا ضَعِيفَا

نَجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تَنِيْبُوا

إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْعَانًا مُضِيفًا⁽⁷⁶⁾

نَجَاهِدُ لَا نُبَالِي مَنْ لَقِينَا

أَهْلَكْنَا التِّلَادَ أَمْ الطَّرِيفَا

لَأَمْرِ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَتَّى

يَقُومَ الدِّينُ مُعْتَدِلًا حَنِيفًا

(ديوان كعب بن مالك، 1966م، 235-237)

فقد أبان كعب رضي الله عنه في هذه الأبيات عن السَّبَب في المضيِّ إلى الجهاد وتحقيق الانتصارات وهو الدَّعوة إلى الإسلام والدُّخول فيه، وإخراج النَّاس من دياجير الشِّرْك والضَّلَال إلى أنوار الهداية والإيمان، لذا كانت هذه الدَّعوة هي السِّمة البارزة في شعر الغزوات، حيث أبان الشُّعراء في كثير من قصائدهم عن حرصهم على دخول النَّاس في هذه الدَّعوة المباركة، والاستنارة بنور الإسلام، كي يتفَيَّؤا ظلاله، وينعموا بسماحته وعدله.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات، والصَّلَاة والسَّلَام على أفصح العرب قاطبة سيِّد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد سارت هذه الدِّراسة في تتبُّع شعراء غزوات النَّبي صلى الله عليه وسلم، وما قيل في تلك المعارك الخالدة من أشعار، وما حفلت به من روح الحماسة والعزيمة، والحرص على الدِّفاع عن الإسلام، ومنافحة خصومه، والتَّصديِّ لهم في كلِّ الأشعار التي نظموها من أجل الإساءة إلى الدَّعوة الإسلامية.

وقد اشتملت هذه الدِّراسة على مبحثين أساسيين، أحدهما بعنوان: (الشِّعر في مواكبة الغزوات)، وفيه عرض البحث لغزوات النَّبي صلى الله عليه وسلم، وما قيل فيها من أشعار، وما حفل به ذلك الشِّعر من ردود على شعراء المشركين، حيث كانت غزوة (بدر) هي أولى الغزوات التي نالت اهتمام الشُّعراء، ثم تلتها غزوة (أحد)، واتَّسم فيها الشِّعر بالكثرة لما شهدته من أحداث جعلت شعراء المشركين يفخرون على المسلمين، ولذا فقد جاءت الرُّدود من قبل شعراء المسلمين لتخرس ذلك الشِّعر، وتفصح عن عيوبه. وفي غزوة (الخنديق) وقف الشِّعر يشير إلى حماسة المسلمين وروحهم المعنويَّة في مواجهة تلك الأحزاب التي قدمت لحرب المسلمين، ولكنَّهم باءوا في نهاية أمرهم بسوء العاقبة والخسران. وفي غزوة (مؤتة)

وقف الشعر يستنهض الهمم، ويقوّي العزائم، ويشير إلى ما ينشده المسلمون من التّصراً أو الشّهادة في سبيل الله. وأخيراً جاء (فتح مكة) فكان بشارة عظيمة للمسلمين وطريقاً لنشر الإسلام في تلك الأنحاء، حيث مجّد الشّعراء ذلك الفتح وأبأنوا عن عظمتها، وأهمّيّته للمسلمين.

أمّا المبحث الثّاني فكان بعنوان: (القيم الفنيّة في شعر الغزوات) وفيه تناولت الدّراسة ما اتّسم به ذلك الشّعر من قيم فنيّة في جانب اللّغة الشّعريّة، والصّورة الفنيّة، وبيان أثر القرآن الكريم في شعر الغزوات.

أهم النتائج :

1. براعة الشّعر الإسلامي في جانب الغزوات وظهوره بشكل ملموس .
2. مواكبة شعر الدعوة الإسلاميّة للغزوات التي قادها المسلمون في عهد النبي ﷺ .
3. اشتغال ذلك الشّعر على معاني الحماسة والجهاد في سبيل الله والحض على نصرة الدين .
4. العاطفة الدينيّة متوقّدة في ذلك الشّعر حيث ظهر أثرها في إذكاء الهمم وتقوية العزيمة لدى المجاهدين وحضهم على نصرة الدين .
5. تنوّع المعجم الشّعري واشتماله على المفردات والتّراكيب التي تعبّر عن معاني الجهاد في سبيل الله وإذكاء العزيمة في نفوس المجاهدين، وظهر تجليّاً فصاحة الكلمة وسلاسة العبارة وكثرة مفردات القاموس الاسلامي .

أهم التوصيات :

كما توصي الدراسة الباحثين بتناول موضوعات الحماسة في شعر الجهاد في عصر النبي ﷺ وتناول الجوانب الفنية في شعر النّبوة والخلفاء الراشدين؛ لما اشتملت عليه من قيم فنيّة تأثّرت بالقرآن والحديث والمعاني الإسلاميّة الّتي عرفت مع بعثة النبي ﷺ وهو ما يبرز بوضوح أثر الإسلام في الشعر .

هذا وأسأل الله تعالى التّوفيق والسّداد، وأسئد منه العون والتّأييد.
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الهوامش:

(1) غنبة وشيبة: ابنا ربيعة بن عبد شمس من كبار قريش وساداتها، وقد قُتلا في بدر.

- (2) الخَامِغَاتُ: الخَامِغَةُ الضَّعْفُ، سُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ إِذَا مَشَتْ. (انظر: ابن منظور، د.ت. 79/8).
- (3) الخَرْقُ: الفلاة التي تنخرق فيها الرِّيح. ومتنعن: مضطرب.
- (4) الأعلام: الجبال المرتفعة. والققام: ما مال لونه إلى السَّوَاد.
- (5) البُزْلُ: جمع بازل وهو البعير القوي. والعِرْمَسُ: النِّاقَةُ الشَّدِيدَةُ. ويمرع: يخصب.
- (6) الصَّليب: ودك العظام. والموضَّع: المبسوط والمنقوش.
- (7) العين: البقر الوحشي. الأزام: الظِّباء. القِيض: قشر البيض الأعلى.
- (8) قال ابن هشام: وكان كعب بن مالك قد قال: مجالدنا عن جذمنا كل فخمة. فقال رسول الله ﷺ: أ يصلح أن تقول مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم. فقال رسول الله ﷺ: فهو أحسن، فقال كعب: مجالدنا عن ديننا. (انظر: ابن هشام، 1375 هـ/ 136/2).
- (9) مجالدنا: مدافعنا. والفخمة: الكتيبة العظيمة. المَذَرَّةُ: المتعودَةُ على القتال الماهرة فيه.
- (10) الصَّمُوتُ: البرِّح. الصَّوَانُ: كل ما يُصَان فيه السَّيِّءُ، درعاً كان أو ثوباً أو غيرهما. النَّهْيُ: الغدير. ومُتَرَّعٌ: أي: مملوء ماءً.
- (11) العَرِضُ: موضع خارج المدينة. وكلُّ وادٍ فيه شجر فهو عَرِض.
- (12) قَصَرْنَا: غابتنا ونهاية أمرنا.
- (13) النَّصِيئَةُ: الخيارُ من القوم.
- (14) نُغَاوَرَهُم: أي نغير عليهم. ونُشَارِعَهُم: أي نشارهم.
- (15) اليَثْرِيُّ: الأوتار، نسبةٌ إلى يثرب.
- (16) المنجوفة: السَّهَامُ المثقَّف. والحرميَّةُ: نسبةٌ إلى أهل الحرم. والصَّاعِدِيَّةُ: نسبةٌ إلى صاعد، وهو صانع معروف.
- (17) تَصُوبُ: تقع. والبَصَارُ: الحجارة اللينة. وتُقَعَّقُ: تُصَوَّت.
- (18) الصَّبَا: ريحٌ شرقية. والقرَّة: البرد. ويَتَرَّعُ: يجيء ويذهب.
- (19) سَرَائِهِم: خيارهم.
- (20) السُّبَّةُ: العار. والدِّمار: ما يجب على الرِّجل حمايته.
- (21) جِلَادٌ: جمع جليدٍ وجَلْدٍ وهو الصِّلْبُ.
- (22) هو عبد الله بن الزُّبَيْرِ بن قيس بن عدي بن سعد السَّهَمِي القرشي. كان شديداً على المسلمين يهجوهم ويحرِّضُ المشركين عليهم. وقد أسلم بعد فتح مكَّة. واعتذر من النَّبِيِّ ﷺ عمَّا بدر منه. وكانت وفاته سنة 15 هـ. (انظر: ابن الأثير، د.ت. 160/3).
- (23) الرَّسْلُ: الإبل المرسلة بعضها في إثر بعض.
- (24) لِقَاحُ الْحَرْبِ: زيادتها ونموها. وأصدى اللون: لونه بين السَّوَاد والخُمْرة. وَمَشْعُولٌ: أي متَّقدٌ مثلَّهَبٌ.
- (25) تَرَاخُ: تفرَّخَ وتهبَّزَ. والخَذْمُ: قطعُ اللَّحْم. والرَّعَابِيلُ: المثقَّلَةُ.
- (26) مُتَجَلِّلاً لاصقاً بالأرض. والجِذْعُ: فرع النَّخْلَةِ. والدَّكْدَكُ والدَّكْدَاكُ: أرضٌ فيها غلظ، والجمع دَكَادِكُ.
- (27) المَقْطَرُ: الذي ألقي أحد قطره، أي جنبه. والقطر: الجانب. وبِزْنِي: سلمي.
- (28) المعمعة: اختلاط الأصوات وشدة زجلها. الأَبَاءُ: القصب، ومعمة الأَبَاءُ: صوت الحريق في القصب.
- (29) المأسدة: الموضع الذي تجتمع فيه الأسود. ونُسْنُ: تُحْدُ. والمِذَاذُ: موضعٌ بالمدينة حيث حُفِر الخندق، وقيل هو بين سلع وخندق المدينة. والجَزْعُ: الجانب.

- (30) الْمُعْلَمِينَ: الذين يُعْلَمُونَ أنفسهم في الحرب بعلامة يُعرفون بها.
- (31) السَّابِغَةُ: الدُّرُوعُ الكاملة. النَّبِي: الغديرُ من الماء.
- (32) القَتِيرُ: مساميرُ الدُّرُوع. والجنادُب: ذكور الجراد. والشَّكُّ: إحكام السَّرْد.
- (33) الجدَّلاء: الدُّرُوع المحكمة أو المدوَّرة الحلق. ويحفزها: يرفعها. والنَّجاد: حمائل السُّيُوف.
- (34) المقلَّص من الخيول: طويل القوائم ضامر البطن. والورد: الفرس الأشقر الذي حمرة لونه ذاهبة إلى الصُّفرة. والمجحول: الذي في قوائمه بياض يخالف سائر لونه. والأبْلَق: إذا تجاوز البياض إلى عضديه وفخذه.
- (35) ترد: تُسرع. الكَمَاة: جمع كَمِي وهو الشُّجاع. المُلْتَقُ: ما يكون عن الطَّل من زلقٍ وطين.
- (36) العمَّاية: سحابة الغبار وظلمته. والوشيج: الرِّماح. المُرْهَق: المذهب للنفوس.
- (37) دَلَفَتْ: تقدَّمت. التَّرْقُ: الطَّائِشون، السَّيِّئو الخلق.
- (38) الحَوَمَات: مواطن القتال، واحداها حَوْمة.
- (39) انظر: (الجبوري، 1398م، 29) والقصيدة مطلعها:
- حَيِّ الدِّيَارِ مَخَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا
طُولُ الْبَلَى وَتَرَاوُحُ الْأَحْقَابِ
- (40) هو ضرار بن الخطَّاب بن مرداس القرشي الفهري، فارس شاعر، قاتل المسلمين، واسلم يوم فتح مكَّة.
- (انظر: ابن عبد البر، 1382هـ/337/1).
- (41) العَرْدَسَةُ: الشَّدِيدَةُ القُوَّة، يريد الكتيبة. والطَّحُون: التي تطحن كلَّ ما مرَّت به.
- (42) المُرْصِدُ: المُعَدُّ للأمر غَدَّتْه.
- (43) المِرَاخ: النَّشَاط. والشَّاعِبِينَ: الذين ديدنهم الشَّغب وتهيبج الشَّر.
- (44) أَجْلَبَ القَوْمُ: صاحوا واجتمعوا. والرَّئَةُ: صوتٌ فيه ترجيع يشبه البكاء.
- (45) ذات فرغ: الفرغُ مخرجُ الماء من الدَّلْو. والرَّيْدُ: الرَّغْوَة.
- (46) الحرَّان: العطشان. مُجَهَّزة: مسرعة متِمَّة. يقال: أجهز على الجريح إذا أماته.
- (47) أجا: أحد جيلي طيء، والآخر سلمى. والفرع: اسم موضع.
- (48) تَغَرُّ: تطعم شيئاً بعد شيء. والعُكُومُ: جمع عِكْم، وهو الجنب.
- (49) الصَّوَّان: حجارة مُلس، واحدها صوانة. أزل: أَمْلَس. الأديم: الجلد.
- (50) الجموم: النَّشَاط والرَّاحة.
- (51) مسوَّمات: معلَّمات.
- (52) مآب: اسم مدينة في طرف الشَّام من نواحي البلقاء.
- (53) البريم في الأصل: خيطان مختلفان أحمر وأبيض، وكلُّ ما فيه لونان مختلفان فهو بريم.
- (54) اللُّجْبُ: اختلاط الأصوات وكثرتها. والبَيَّضُ: ما يوضع على الرَّأس من الحديد. والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى البيضة.
- (55) راضية: أي مرضية.
- (56) أَدَيْتِي: أوصلتني. والجِساء: جمع جِسي، وهو ماء يغور في الرَّمْل.

- (57) البَغْلُ: النَّخْلُ الذي يشرب بعروقه من الأرض فيستغني عن السَّقْيِ. ويقال: استبعل النَّخْلُ: أي: شرب بعروقه.
- (58) هو: بجير بن زهير بن أبي سلمى المزني، أسلم قبل السنة السابعة للهجرة، ودعا أخاه كعباً للإسلام، وشهد مع المسلمين بعض الغزوات ومنها فتح مكة. (انظر: العسقلاني، 1970م، 141/2).
- (59) بسيع: أي بسيع مائة. وبنو عثمان: هم مُزينة.
- (60) نَطًا: أراد نَطًا، فحَقَّفَ الهمزة. والرَّشَقُ: الرَّمْيُ السَّريع. والمريشة: يعني البسهام ذوات الريش.
- (61) الحفيف: الصَّوت. وانصاع: انشَقَّ. والفوق هنا: فوق، وهو طرف السهم الذي يلي الوتر. والرَّصافُ: جمع رصفة. وهي عصبة تلوى فوق السهم.
- (62) هو: العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمي، يكنى أبا الهيثم، وهو من شعراء البادية. أسلم قبيل فتح مكة، وشارك مع قومه في الجهاد ونصرة الإسلام، توفي سنة 18هـ. (انظر: العسقلاني، 1970م/342).
- (63) البطاخ: جمع بطحاء. وهي الأرض السهلة المتسعة.
- (64) شعارهم: علامتهم في الحرب.
- (65) ضنك: ضيق. والهام: الرؤوس. والحنتم: الحنظل.
- (66) مزحم: كثير المزاحمة، يريد أن جدَّهم غالب.
- (67) العَوْدُ (هنا): الرَّجُلُ المُسِنَّ. وشامخ: مرتفع، والخضرم: الجواد الكثير العطاء.
- (68) أَجْمَمْنَا: أَرَحْنَا.
- (69) الحَاضِنُ: المرأة التي تحضن ولدها.
- (70) وَجَّ: من أسماء الطائف. (انظر: الحموي، 1374هـ، 361/5).
- (71) العقائق: جمع عقيقة، وهي شعاع البرق. وكتيف: جمع كتيفة، وهي الصفائح الحديد التي تستعمل في صنع الأبواب.
- (72) الجديَّة: الطَّريقة من الدَّم. والجادي: الرَّعفران. ومدوف: مخلوط بغيره.
- (73) أَجْدَهُمْ: بكسر الجيم وفتحها بمعنى: أَيْجِدُ منك هذا. ونُصِبَت على طرح الباء. وعَرِيفًا: عارفاً.
- (74) عِتَاقُ: جمع عتيق. والنُّجْبُ: جمع نجيب. والطُّرُوف: جمع طَرْفٍ (بكسر الطاء)، وكلُّها صفات للخيال بمعنى: الكريمة الأصل.
- (75) الرِّيفُ: الموضع المخصب على الماء. يريد تتخذكم أعواناً على الحرب، ونستمدُّ من ريفكم العيش.
- (76) نُجَالِدُ: نحارب بالسيف. ومضيفاً: ملجئاً.

*** **